حكاية من بلدي

طلعت أدهى مني وأقوى

بقلم: عمر سعدي

بلغت "لبيبة" سن السابعة عشره من عمرها قضتها تحت كنف والدتها التي غمرتها بحنانها الفياض- ولفتها بعطفها وحبها الجارفين، ورأت فيها الإرث الثمين، والذخر النفيس من زوجها، الذي فقدته في السنة الخامسة من زواجها، اثر شجار بين طرفين من العائلة، قاده اليه اخوه الأكبر وزجه فيه وعندما حمي وطيس الشجار، واستعرت نار الطوشة وهوت العصي على الأجساد، وشجت الحجارة الرؤوس، واستلت السيوف وتعالت الشتائم والصيحات من الجانبين، أصيب "عبد الهادي" وقد اثخنته الجراح، ما لبث ان جاءوا به مخضبا بدمائه، جثة هامدة. زعقت زوجته "خشفة" في وجه أخيه وهي تندب وتلطم متسائلة "ليش تركته وانسليت؟ ليش ما ظليت وحميتو؟ وين شجاعتك ورجولتك؟ يا عيب عليك يا عبد الرحمن يا أبو الأسد".

انطلق صوته متباكيا "ما تخفيش والله لاستد واثأر له بعشرة منهم". وبصوت متهدج والغصة في حلقها قالت "وشو بنفعني وبفيدني لو قتلت عشرين انا فقدت أحسن الرجال أغلي ما املك في الدنيا. والقتل بجيب قتل والثأر بجيب الثأر كف عن عمايلك الوسخة يا أبو الأسد بكفيك عاد مشاكل"، والدموع تنهمر ساخنة من مقلتيها، وراحت تنوح وتقعد مع النائحات حتى حملوه ووواروا جثمانه الثرى.

انقضت أيام العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام وبعد فترة وجيزة من انقضائها سارع "أبو الأسد" وكان في عجلة من امره يقنع أهلها وعائلتها بذرائع واهية، يحثهم على تزوجها فقد باتت "خشفة" ارملة فهذا نصيبها وقدر الله فلسلامة سمعتها، والمحافظة على شرفها وشرف العائلة وتحاشيا للأقاويل والوشوشات والغمز واللمز وهي لا زالت في اوج صباها وامرأة جميلة فالعادات والتقاليد لا تجيز ولا تسمح ان تظل المرأة ارملة.

وعندما تقدموا وكاشفوها بالأمر وعرضوا عليها فكرة الزواج وقع عليها قولهم وقوع الصاعقة هاجت وماجت وثارت وقالت "يا ويلكو من الله شو كايني احلم وينتا يموت حتى اتزوج استحوا" وصرخت وقالت "سأظل ارملة ولن اسمح لاحد ان يمس شرفي بدي احتضن بنتي الوحيدة واعيش انا وإياها فهي الإرث الثمين والذخر النفيس من زوجي ستكبر وتعيش في حضني وتحت رعايتي ولن اسمح بمن يتحكم بمصيرها حتى تتزوج وتخلف لتحافظ وتخلد ذكر والدها" لم يأل جهدا "أبو الأسد" ولم يقنعه ما نقلوه له أهلها عن رفضها القاطع للزواج، تقدم بنفسه وعرض عليها الفكرة ثانية وقال لها ان العديد من الرجال سالوا ويرغبون الزواج منها، وبعضهم من ميسوري الحال الأثرياء فقالت له قيم الفكرة من راسك عارفه احابيلك.

تعايشت "خشفة" مع واقعها المر وحظها العاثر واعتمدت على نفسها "بعصمة" واباء تدير شؤونها وحدها تزاول فلاحة الأرض، والعمل في كروم الزيتون والعنب، حصة زوجها من الإرث مناصفة مع أخيه "أبو الأسد" مرت الأيام فاندلق جشعه وتفجرت اطماعه وفاضت لتطول الاستيلاء على الأرض بالتدريج وراح يستولي قطعة بعد قطعة ولا من مناصر لها، فهو رجل ذو بأس وسطوة وسلطة، دافعت عن حقها وقاومت استبداده وتصدت له فاطلقوا عليها اسم المرأة الحديدية، استمر السجال والنزاع سنوات طويلة سنوات طويلة في مراكز القضاء، لم تخنع ولم تخضع، عجم عودها فوجده عصيا فلم يكسرها كل غوائله وجبروته وغلظته في حين لم تردعه قرارات المحاكم التي كانت تقضي لصالحها بإخلاء الأرض ورفع يده عنها.

اخذ الشباب يتقدمون لطلب يد كريمتها "لبيبة" التي عايشت مراحل مأساة والدتها والمشاهد المؤلمة التي تمر بها وفكرت الاستجابة لطلب فتى أحلام ابنتها لتنشلها من مستنقع جحيم عمها. لتنعم بحياة هنيئة. تسعد بها تعويضا لها عن البؤس الذي لحق بها وراحت لبيبة رغم الغمامات السوداء التي كانت تلوح في سماء تفكيرها، تحلم بالزواج وبناء عائلة وإنجاب الأولاد، ففي خضم احلامها وغمرة طموحها ورغبتها الجامحة في الزواج من فتى احلامها.

واجهتها العقبة الكأداء، تصدى لها ابن عمها "اسد" بمساندة والده عملا بمقولة "ابن العم بنزل عن ظهر الفرس" فهدد وتوعد بالويل الثبور لمن يجرؤ ويتقدم لخطوبتها وهدد بغلظة شائنه إذا ما تمت خطوبتها فيدخل عليها عنوة في عقر دارها فظلت تعاني من ذلك التهديد والتصدي حتى بلغت سن السابعة والعشرين من عمرها عانسا قابعة في البيت في هم وغم، أثرت البقاء عزباء والعيش مع والدتها على الزواج من ابن عمها. شعرت والدتها ان الضوء الأحمر اخذ يبرق امام "لبيبة" وان القطار قد يمر ويتجاوزها وان عمرها اخذ يتجاوز الحدود، فلمعت في ذهنها فكرة للخروج من هذا المأزق وتلك المحنة، وراتها الأفضل والوسيلة الوحيدة لخلاص ابنتها من براثن ابن عمها، ووضع حد لمأساة واستيلاء "أبو الأسد" على الأرض، والارث، استذكرت ان لها أقارب وصلة قرابة لأهلها مع احدى العائلات في بلد عربي مجاور، فعرضت عليها الفكرة وبعد تردد ورفض واخذ وعطاء، وعندما كاشفتها برغبتها الجامحة بزواجها لانجاب الأولاد يحملون ذكرى والدها، وانها الوسيلة الوحيدة للتخلص من غلطة عمها وجبروته أبدت موافقتها. وقد سعت الام لتنفيذ فكرتها التي ابقتها في الكتمان عقدت الام صفقة بيع كل العقارات وحصلت على موافقة من دائرة الهجرة بتصريح يمنح ابنتها مغادرة البلاد الى قطر عربي. استفاق "أبو الأسد" وابنه ليجدا "لبيبة" قد غادرت البلاد والأرض قد بيعت وخاب جشعه وتبخرت اطماعه. عندها قال حقا انها امرأة حديدية عملتها خشفة وطلعت أدهى مني واقوى. وظلت تناهضه في القرية شامخة راسخة كالطود تزيده انفعالا وحسرة.

(عرابة البطوف – الجليل)

من منافض، وعلب السجائر بأنواعها الثلاث، ومكان تجمع الشباب في طرف الساحة لمعالجة الجمر في مناقلها المتنوعة الأحجام، وإلى صناعة القهوة ووضعها في "المعاميل" وتقديمها للوافدين الآتين من البلد، ومن باقي البلدات القريبة والبعيدة، ليمتد وصفه للأحاديث الخاصة ، وللتوتر الناجم عن مدى الانتظار، ولمسار التشييع، ولطقوس الصلاة، وللوعة التوديع ولباقي المراسم التي لم يُترك لها مجالا للإفلات من الرصد.

أحاطت الرواية بعضا من عيوب حياتنا الاجتماعية الهدّامة، كالتحرش والاعتداءات الجنسية داخل وخارج العائلة، وما يرافقها من مواقف متناقضة، مُبررة ورافضة أو غير مبالية، تاركةً الضحية عُرضة للتخبط بين الشعور بالذنب والعار، بين اتهام الذات وبين اتهام المجرم الحقيقي، حالة تناقض صارخ نازف ومؤلم وما **زال**

وبالمقابل كشفت الرواية عن الملاحقة السياسية القذرة اتجاه النشطاء السياسيين العرب و"محاربتهم بلقمة العيش" ودمغهم ب"النقطة السوداء" واستعمال المخابرات لوسائل تعذيب وإذلال، واستغلال جسد المرأة لعملية ابتزاز دنيئة ومُهينة.

تضمنت الرواية أقوالا وأمثالا شعبية عديدة تتلاءم والأحداث والمواقف وتشير الى ثراء تراثي عميق لدى شعبنا العربي الفلسطيني، والى معرفة الكاتب الواسعة بهذا التراث، والى مدى قدرته على انتقاء الأكثر ملائمة للحدث."الذي يده بالماء ليس كالذي يده بالنار"، والمثل الخنوع "امشي الحيط الحيط وقول يا رب السترة"، " النفخ في قربة مثقوبة"، اضافة لأقوال خاصة بمجتمعنا من الصعب ان تجد لها مرادفا في لغات اخرى "قطع الحكي"، "لا قدامي ولا وراي"، "افرد الطاولة"، والى دخول مفردات حديثة تدل على فترة ظهورها وارتباطها بالتطور العلمي والتكنولوجي " فيس بوك، واتس أب، سكايب، ستاتوس ،انترنت.." وقد أظهر مواقف ايجابية لبعض العادات مثل" مشاركة الأتراح أفضل ما بقي للعرب من عادات" وأنه في الأعراس "يحب دعوات العشاء ولا يحب القاعات"، وقد بعث الكاتب، ومن خلال شخصيات في الرواية، رسالة تربوية صائبة حول اساليب التدريس أجيّدة ،وأن المعلم المتميّز هو القريب من الطالب والمتفهم له "ولا يتحدث من فوق، بل يفهم نفسية الطلاب.. له طول بال" وقدرة "على شرح ما ليس واضحا".

نجح عودة بشارات أن يشد القارئ الى أحداث الرواية ويجعله متفاعلا، متداخلا في أجوائها ليجد نفسه أحد أبطالها العالم ببطونها، وكأنه الشاهد الشخصي لمجريات أحداثها.

رواية صريحة جريئة جديّة مشوبة بالسخرية والنقد البناء، بعيدا عن جلد الذات، مشيرة للعيوب، محفزة للتصليح والتغيير للأفضل، صادقة مع رؤية ناقدة بنّائة، رواية مثيرة، ممتعة، تتجاوز الواقع لتعود اليه ولتنطلق من جديد ، تستحق القراءة والدراسة دافعة للتأمل، للتفاؤل، للتجدد ول "الصباح رباح"، وبهذه الرؤية التفاؤلية يحسن الروائي عودة بشارات انتقاء نهاية مفتوحة لروايته، روايتنا، وينهي. "لا أفضل من الصباح للشروع في بداية جديدة".

(النّاصرة\ صفورية—الجليل).

الإصـــــلاح
مجلة أدبية ثقافية ذات رونق خاص